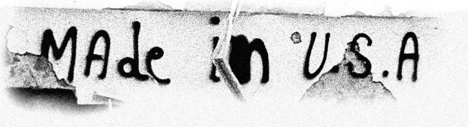

أيـن أشـــبــــاحُ المثــــقـــــفـين؟

منذر سليمان

خطة الحرب

لم أستطعْ تجاهُلَ الرغبةِ الملحّةِ التي حملتْها إليّ رسالةُ رئيس تحرير الآداب بالبريد الإلكتروني، وفيها يسألني المساهمةَ في هذا العدد، خاصةً وأنّه خَتَمَها قائلاً: «لا تبرِّرْ لي استحالةَ الأمر بانشغالك؛ فلا يوجد مستحيلٌ بعدَ ما شَهِدْناه من صمود هنا!»

أَعترفُ بعجزي عن تقديمِ قراءةٍ سريعةٍ لكيفيةِ تعامُلِ «المثقفين» مع الحرب العدوانية الإسرائيلية ـ الأميركية على لبنان بحجره وبشره ومقاومته، وعن كيفية إسهامهم (أو عدمه) في ملحمة الصمود والبطولة التي لن تَحْجبها أبواقُ الضخِّ الإعلامي المشكِّك والمتجنّي والمحبط أو ركامُ الدمارِ والدماءِ والدموع الذي خلّفتْه آلةُ الحرب الإسرائيلية المجرمة.

لا أزعم أنّني قادرٌ على تقييم مساهمة الآخرين. لذا سأكتفي بنقلِ لمحةٍ عن جانب من مساهمة خاصة:

شاءت الأقدارُ أن أكون في زيارة لبلدي وأهلي في لبنان بصحبة زوجتي وأحدِ أبنائي خلال نشوب الحرب. وبعد ساعاتٍ من مغادرتي استوديو محطة «المنار» إثر مشاركتي في البرنامج الحواري «ماذا بعد؟»، وَجَّهت الطائراتُ الإسرائيليةُ صواريخَها للمرة الأولى إلى المحطّة المذكورة في سلسلةِ محاولاتها المحمومة والمتكررة لتدمير القناة وإسكاتِ صوتها (وهو ما عجزتْ عنه حكومةُ إسرائيل الإجرامية حتى وقف العمليات الحربية). ثمّ توسّعتْ دائرةُ القصف الجوي الإسرائيلي بصورة متسارعة. وفكّرتُ: نحن، إذن، أمام حربٍ مفتوحة، لا انتقامٍ محدودٍ من المقاومة.

فجرَ اليوم الرابع للحرب، حين لم يَعُدْ ممكنًا النومُ أو الراحةُ على دويّ القصف الجوي والبحري الوحشي، كتبتُ تحت عنوان «نصرٌ لاحق لوعدٍ صادق» ما اعتبرتُه برقيةً سريعةً تتضمّن قراءتي لما يجري، وذلك بعد سيل الاتصالات والرسائل الإلكترونية القادمة من أصدقاء وزملاء وأحبّاء في الولايات المتحدة يستفسرون ويتلهّفون للاطمئنان على لبنان وعلى سلامتنا الشخصية. وقد جاء في تلك الرسالة: «لا تَمْلك الحكومةُ الإسرائيليةُ غيرَ خيار التدمير والانتقام والحصار، ولا يَمْلك الشعبُ اللبناني غيرَ خيار الصبر والصمود والمقاومة طريقًا للانتصار. إنّ خطة تقطيع الأوصال في حرب الانتقام والتدمير المفتوحة لن تعيد الهيبةَ المهدورةَ إلى حكومة إسرائيل، المسكونةِ بوهمِ القدرة على أخذ زمام المبادرة بقوة النار والدمار.»

وتابعتُ: «يبدو أنّ خطة الحرب تسعى إلى تحقيق أهدافٍ لبنانيةٍ وإقليميةٍ أبرزُها:

ـ مَنْحُ معترضي الداخل اللبناني الذخيرةَ الاحتياطيةَ للانتقال من موقع الارتباك والانتظار المحرجِ إلى موقع الإفصاح الضاغط على المقاومة وسلاحها... فما عجزت القراراتُ الدوليةُ الجائرةُ عن تحقيقه حتى الآن، بهدف نَقْلِ لبنان إلى خانة الإذعان والخدمةِ النشطةِ لمشروع الهيمنة الأميركي في المنطقة، تتوخّى بعضُ الأطرافِ اللبنانيةِ أن تُنْجِزَه لها آلةُ الدمار الإسرائيلية. فكأنّ تلك الأطراف توّاقةٌ إلى ما يريحها من عبء تحمُّلِ المسؤوليات للتخلُّص من قوة الردع الذاتية والاحتياطية المجرّبة، القادرةِ على مواجهة تهديدات وأخطار العدوان الإسرائيلي المتربّص دوما بلبنان.

ـ استغلالُ الصمتِ والعجزِ والتواطؤِ الرسمي العربي، والضوءِ الأخضرِ الأميركي، والشللِ الدولي شبهِ الكامل (الأمم المتحدة)، للاقتصاص من القوة التي أذلّت الغطرسةَ الإسرائيليةَ وأَلحقتْ بها الهزيمةَ والاندحارَ من معظم الأراضي اللبنانية في أيار (مايو) ٢٠٠٠، ولاحتواءِ وتحجيمِ دور المقاومة اللبنانية تمهيدًا لنزع سلاحها.

ـ تحقيقُ اختراقٍ في جدار المقاومة والرفض العربي... والحيلولةُ دون تثبيت ميزانِ قوًى معنويّ يعزِّز الثقةَ بهزيمة المشروع الأميركي المترنِّح في العراق وأفغانستان.»

وتضيف البرقية/المقالة السريعة: «تبدو حكومةُ إسرائيل عاجزةً عن تحقيق أيٍّ من الأهداف المعلنة وغيرِ المعلنة، وأبعدَ عن توفير الشروط لاستعادة أَسْراها في فلسطين ولبنان حيث تتغذّى الساحتان من عنفوان الصمود والمواجهة. فالحرب المفتوحة على لبنان لن تكون خاطفةً أو سهلةً؛ ذلك أنّ المقاومة تَمْلك ما يكفي من الإرادةِ، والرصيدِ الشعبي والمعنوي، والحكمةِ في إدارة الصراع، والقدرةِ العسكرية... لردمِ الهوّة السحيقة في الميزان العسكري التقليدي مع عدوها...»

لقد سُقْتُ هذه المقاطعَ للتذكير فقط، وأتركُ للقارئ أن يَستنتج مغزاها ومدى صحّتها بعد الهدنة المؤقّتة التي نَشْهدها الآن.

من دوْر إلى دوْر!

في عصر «القرية العالمية» المزعومة والثورةِ التقنية والمعلوماتية، لم يَعُدْ للمتلقّي خيارٌ في رسم الصورة التي يَرْغب فيها عن المثقف النموذجي، بل أَضْحى المثقفُ هو مَنْ يتمكّن من لعبِ دوْر ما في صياغة الرأي وترويجه للمتلقّي. لم تَعُد الثقافةُ والمعرفةُ شرطًا مطلوبًا ومفترضًا لـ «المثقفين»؛ فلقد اقتَحَمَ مَنْ يساهم بالرأيِ والتعليقِ فضاءنا السمعيَّ والبصريَّ رغمًا عنّا.

والحقّ أنّنا يبدو وكأنّنا تواطأْنا في قبول تخلِّي المثقف عن دورٍ نُسِبَ إليه عادةً في نشر الوعي والمعرفة أو المساهمة في خدمةِ قضية شعبه وقضايا الإنسان. فلقد طغى الدورُ الوظيفي الدعائي الترويجي على حساب الدور المعرفي الإبداعي. والمثقف متّهم اليوم، أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى، بتقديم خطاب تبريري أو تخديري، وفي أفضل الأحوال تفسيري. لم يَعُدْ مهتمّاً بخطاب التنوير والتثوير، وكأنّ مرحلةَ التحرر الوطني العربية قد استُكْمِلَتْ! والأنكى هو ما نَشْهده في العقديْن الأخيريْن من نزوح بالجملة لمثقفين وناشطين من التيار اليساري إلى مقاعدِ الطوائف والقبائل والعائلات والزعماء التقليديين. ولم يَعُد الارتهانُ لأصحاب المال السياسي (الموظَّف طائفيّاً) ظاهرةً لبنانيةً بامتياز، بل أضحى ظاهرةً مشرقيةً وعربيةً عامة. وانغمس هؤلاء في الترويج لخطاب الهزيمة والاستسلام للمشروع الصهيوني الوكيل، أو لمشروع الهيمنة الأميركي الأصيل، تحت ستار «محاربة الاستبداد الداخلي ونشرِ الديموقراطية.»

لقد تطورتْ صناعةُ الارتهان والارتباط بالأجنبي ارتماءً في أحضان المؤسسات الإعلامية وشبهِ البحثية، حتى صَدَقَ الاتهامُ بتكوّن فرقةٍ واسعةٍ من «المارينز الثقافي» يتوالدون كالأرانب تحت مسمَّيات «المنظمات غير الحكومية» المختلفة التي تُغْدِقُ الأموالَ عليهم، أو يلتحقون بالمؤسسات الأميركية الحكومية أو شبه الحكومية يروِّجون لبضاعةٍ أميركيةٍ خاسرةٍ في العالمين العربي والإسلامي.

مواقع المثقفين العرب

من الصعب حصرُ الخريطة الثقافية لانتشار المثقفين العرب من حيث المواقع والمواقف. وحسب رؤيتي، فإنّهم يتوزعون على المواقع التالية:

ـ الموقع الحزبي. وما أقلَّ المثقفين داخل الأحزاب السياسية الوطنية العربية، في مناخٍ لم تعد فيه الأحزابُ فاعلاً رئيسًا في الحراك السياسي والجماهيري العربي. والحال أنّ خيارات المثقف الحزبي محدودةٌ؛ فهو عاجز ـ للاعتبارات الحزبية والتنظيمية ـ عن خوض معركة التنوير الفكري والثقافي المطلوبة داخل الحزب وخارجه.

ـ الموقع غير المنظَّم، ولكن المقرَّب من التنظيم الحزبي. ويمارس المثقفُ من هذا الموقع قَدْرًا من الاستقلالية في خطابه، مع مراعاة الانسجام مع التوجّهات العامة للتنظيم المذكور.

ـ الموقع المستقلّ. ومع نسبية الاستقلال طبعًا، يلاحِظُ المراقِبُ احتشادًا كبيرًا لهذه الفئة التي تتنقل بين الرصيف والشارع... مع استحسان مقاعدِ الرصيف، حيث تَسْهل المشاهدةُ

والانتــقـــادُ، دون أن يكونَ لإطلاق المواقف أيُّ تبــعـــات أو مسؤوليات.

ـ الموقع الملتبس بين المنظَّم والمستقلّ، حيث ينخرط المثقفُ في منظماتٍ ناشطةٍ غيرِ حكومية ليست لها صلةٌ بالتمويل الأجنبي، ويأمل أن يعوِّض بنشاطه عن شعوره بالعزلة بعيدًا عن الانخراط الحزبي، لغيابِ الأحزابِ التي تستحقّ ـ في رأيه ـ الانتماءَ إليها.

يلاحَظ في الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان انحسارُ دور المثقفين المشغوفين عادةً باصدار الإعلانات والبيانات، ما عدا بالطبع المبادرة الطليعية التي صَدَرتْ عن مجلة الآداب.❖ فحتى النضالُ الإلكتروني، جلوسًا مريحًا في مقعدٍ أمام شاشة الكمبيوتر، كان أمرًا مكلِفًا ومنهِكًا عَجِزَ البعضُ عن تحمُّله.

المثقف الوطني في كلّ هذه الحالات ليس أمامه سوى التعبير الصادق عن نبضِ وطموحاتِ الشارع العربي، الذي عَبَّر عن اعتزازه بالمقاومة الوطنية اللبنانية. صحيح أنّه لا يستطيع تغييرَ الوقائع في الميدان العسكري، ولكنّه قادرٌ بالتأكيد على أن يساهم في خوض المعركة الإعلامية والنفسية والمعنوية لدعم صمود الشعب والوطن والمقاومة.

قد يكون من المبكِّر إجراءُ جردةِ حسابٍ لما فعله المثقفون خلال هذه الحرب. ولكنّ المواطن يدرك ويفرِّق جيِّدًا بين مَنْ ساهم في رفع معنوياته ودعمِ صموده ولو بالكلمة، وبين الذين تَحوّلوا إلى أبواقٍ تَنْعق بخطابَ التشكيك والهزيمة والإحباط.

المفاجأة أن يستمرّ دعاةُ المشروع الأميركي في المنطقة ومبرِّري العدوان الصهيوني في نعيقهم فور وقف العمليات الحربية وقبل أن يَرْفع الوطنُ شهداءه من بين الأنقاض. هم بائسون لأنّهم راهنوا على القرارات الدولية أولاً ففشلوا، وراهنوا على العدوان الإسرائيلي المدعوم أميركيّاً ثانيًا ففشلوا، فهرعوا إلى تجنيد طابورهم السياسي والإعلامي للنيل من المقاومة عبر تفسيراتهم الانهزامية لقرار ١٧٠١ ـ علّهم يبرِّرون تقاعسَهم

❖ ـ تعليق الآداب: راجع «بيان من عاملين وعاملات...» في نهاية هذا العدد. وللأمانة، فإنّ بيانًا قصيرًا آخر صدَر بتوقيع عدد من الزملاء (بينهم يحيى جابر وإلياس خوري وأحمد بزّون). (الآداب)

وانطواءَهم خلال الحرب وبعدَها. ومُنْيتُهم: إرباكُ الساحة الداخلية وإنهاكُها، وإرباكُ المقاومة... وكأنّهم لم يَسْمعوا تهديداتِ أولمرت بأنّه ينتظر الفرصةَ السانحةَ للثأر لهزيمة جيشه.

بين أشباحٍ... وأشباح

في إدارة معركة الصمود الأخيرة توفّرتْ قيادةٌ ميدانيةٌ استثنائيةٌ في صلابتها وحكمتِها وشجاعتِها وإخلاصِها وقدرتِها على إشاعة الثقة والطمأنينة. فبدلاً من الارتباك والاضطراب والتعويضِ عنهما بالتصريحات النارية، خيضت المعركةُ بكلّ هدوء واتّزانٍ واقتدار، ولم نسمعْ مرةً واحدةً شعارَ اليأس «يا وحدنا!» رغم أنّ المتفرِّجين كانوا الأكثريةَ في الداخل وفي المحيط الأقرب والأبعد. ولم تَصْدر دعوةٌ واحدةٌ إلى التطوع والمشاركة في القتال. ولم تَجْرِ عملياتُ الاستعراض في أرض المعركة أو بعيدًا عنها، واعترف الأعداء بأنّهم يقاتلون الأشباح. لقد بدا المقاتلون أشباحًا أشدّاء، بينما قبع بعضُ الخفافيش في جحورهم يَشْحذون حناجرَهم وأقلامَهم للطعن في المقاومة، ويحضِّرون توابيتَ الدفن لسلاحها، وبعضُهم يَحْلم بالجلوس مرةً أخرى إلى مائدة كونداليسّا رايس ليس لاستلام «أمر العمليات» بل لتوزيع المغانم المرتقبة من نجاح العدوان.

من النتائج المباشرة لانجاز الصمود اللبناني استعادةُ نهجِ المقاومة عافيتَه ومكانتَه في الخطاب السياسي والفكريَ والإعلامي العربي. وهذا ما يَطْرح مهمّاتٍ مستجدّةً على المثقف الوطني، الذي بدا مقصِّرًا في مواكبةِ أطولِ مواجهةٍ بطوليةٍ عربيةٍ ضدّ آلة الحرب الإسرائيلية منذ بداية المشروع الصهيوني على الأرض العربية. وستبقى الساحةُ الفكريةُ الإعلامية والثقافية العربية تنتظر أن يتمّ دحرُ منطق مروِّجي ثقافة الهزيمة والخنوع والاستسلام، وتأمل أن يتحقّق ذلك بالتوازي مع الهزيمة الميدانية العسكرية التي لحقَتْ بأسيادهم.

وأضعفُ الإيمان أن يتحوّل المثقفُ بقلمه وصوته صدًى أمينًا وقويّاً لصوتِ المقاوم وفعلِهِ على أرض المعركة، وأن يسلِّط الضوءَ على كلِّ ما يَخْدم صمودَ الشعب المقاوم وتماسُكَه ووحدتَه على امتداد الساحة العربية، وخاصةً في فلسطين والعراق ولبنان.

ويبدو السؤالُ الملّح في هذه المرحلة: أين أشباحُ المثقفين؟!

واشنطن

د. منذر سليمان

باحث ومحلِّل. مدير مكتب مجلة **المستقبل العربي**، واشنطن.